

اشتد ايضاً في الوقت نفسه مركز الاختباش حتى
امسحوا المنازع الوحيد للفرس في تجارة الهند :

انتقل زمام الحكم من البارثين إلى الساسانيين
في سنة 225 م ومن أهم ما امتاز به الساسانيون
اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس — الناحية التي
لم يلتفت إليها أسلافهم قط ، يتجلّى هذا الاهتمام فيما
قام به أول ملوك الأسرة الجديدة ، ارديشير الأول
(225 - 241 م) من إنشاء الموانئ وما إليها . وفي
مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان
الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر
الخليج الناري ثم عن انتقام سابور الثاني من
العرب بعد ذلك بزمنٍ قليلٍ مما يدل على تقدم الملاحة
واحتياز العنصرين دوراً من الزيز والصهر في بوتقة
واحدة . وفي هذه الائتماء زالت روما وخلفتها قسطنطينية
سنة 330 م كما أن حمير استكملت سيادتها على الجزء
الجنوبي من جزيرة العرب حتى أصبح التابع « ملك
سبأ وحضرموت ويبنات ونهامة » لكن حمير كانت
الآن مهددة تماماً من قبل الحبشيين الذين كان يجري
في عروقهم دم المهاجرين من اليهود نفسها وفعلاً بدأ
ملوك كسمو (Axum) يتحرشون بسكان الساحل
الشرقي للبحر الأحمر منذ أواخر القرن الثالث حتى
نجحوا في النصف الأول من القرن الرابع في اخضاع
حمير لسيادتهم ، ومع أن سيادتهم لم تدم إلا ببرهة
قصيرة استأنفت حمير بعدهما استقلالهما إلا أن
الحبشيين بقوا عملاً يعتمد به في كل ما يتعلق بالتجارة
والسياسة في البحر الأحمر .

لقد مررتنا سريعاً بالقرن الثالث والرابع
والخامس لفترة المصادر عنها غير أن الوقائع التي
سردناها تعطينا فكرة عن التغيرات الأخيرة في النمو
والاشتراك وما ان نصل إلى القرن السادس حتى نرى
نتائجها واضحة مستكلمة وهي تتلخص في استيلاء
الحبشيين مرة أخرى على حمير سنة 525 م ، ومما
يسترعي الانتباه أن ذاتواس لم يكن يملك أسطولاً ولم
يظهر أية مقاومة إلا بعد وصول المهاجمين إلى البر ،
ثم جاءت النهاية الكارثية للخراب الذي كان يتسرّب

في كلتا الملكتين المتخالفتين وينقلون البضائع بينهما
وذلك إلى سنة 273 م — الوقت الذي رأى فيه الروم
أن الفرصة قد سُنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت
قد استولت على الرقim من قبل .

يتجلّى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150 - 160 م) مدى التقدّم الذي كان قد أحرزه التجار
الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعاً
على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا
خليج البنغال بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges)
و « بلاد الذهب » (جنوبي ملايو) كما ان واحداً
منهم على الأقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكتنج
(Tong King) ، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166 م
إلى عاصمة الصين ليشكّوا من احتكار الإيرانيين لتجارة
الحرير ويعرض اثناء علاقات مباشرة عن طريق
الهند (49) ومن جهة أخرى تبيّننا المصادر الهندية
التاميلية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب
الهند وانخراطهم في خدمة الامراء الهنود (50) كما ان
ظهور التجار الهنود في أسواق الاسكندرية — الأمر
الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن (51)
بعد دليلًا على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين
الروم والهند .

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرون
الثانية والثالثة بينما أصبحت العرب غير ذات شأن
إلى أن حدثت تطورات سياسية جديدة وساعدت
احوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي
كان يتمتع بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة
أن ركّدت التجارة وتضاءلت إلى أدنى حد بدليل أنه لم
يُعثر في الهند على العملة الرومانية الراجمة إلى ما
بعد 211 م الا قليل النادر (52) .

*/

لقد رأينا آنفاً كيف أن العرب غلبت على تجارة
الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلاً ليجيّدوا من
ثمرات نصرهم فسرى كيف أن الفرس حلوا محل
العرب والروم جميعاً أثناء التراثون التالية ، نعم وقد

انظر Hirth: China & the Roman Orient, 1885 (49)

Rawlinson ص 121 (50)

المصدر نفسه ص 140 (51)

المصدر نفسه ص 151 (52)

لم ينجحوا في ذلك لما كان يتمتع به الفرس من التفؤذ وحسن ادارة الامور في اسوق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه الى انشاء مراكز لهم في سقطرة وفي (Adulis) نفسها واخيراً نراهم يطردون الحبشيين من اليمن وينتزعونها لانفسهم حوالي 570 م .

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق افريقيا من جهة اخرى ، وكان من الطبيعي ان يصبح الخليج الفارسي الطريق الرئيسي لتجارة الهند في عهدهم ، كما كان البحر الاحمر ابان نبوغ الروم من قبل . ونجد هذه الاحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد : اهل ادل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من ان الآلة كانت تعرف بـ « فرج الهند » (55) كذلك يرجح ان « عدولية » في قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامن (56)
يجور بها الملاح طوراً ويمتدى

هي السفينة النسوية الى (Adulis) مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي . يقى ان نتسائل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة في هذا العهد ؟ يبدو انه لم يكن لهم صفة مستقلة ، انما كان اهالى عمان وما حوالها

الي اليمن منذ قرون بشكل انتقامي سد مأرب ما بين 542 – 570 (53) أما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جداً ، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانئ الهندية وكانتوا كما يشهد به (Procopius) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من « الصين » (Sinae) الساحلية في سيلان بينما كانوا هم أنفسهم مسيطرین على الخطوط البرية المولدة عبر وسط آسيا الى (Seres) مصدر « السرق » (54) اي الصين الشمالية . ملخصة القول انه لم يكن احد ينذر من الحصار المفروض من قبل الفرس على الموانئ الهندية الا الحبشيون الذين كثيراً ما ترددوا بپيائهم ، ولا سيما العاج ، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانئ الفرس انفسهم وكانت (Hallia Adulis) (Massawa) ميناء الحبشية الرئيسي (وقاعدة المجموع على اليمن) ، في هذا الوقت مركزاً تجارياً هاماً لأن الروم كانوا قد اضطروا الى قصر نشاطهم على الاتصال بهما والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المندب الا تليلاً ، وهل ادل على تخرج موقف الروم وعجزهم من انهم تو ما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531 م بسفارة من قبل الامبراطور (Justinian) الى اكسوم يطلبون من الحبشيين ان يحاولوا شراء الحرير راساً من الهند وبيعه لهم (الروم) لكن توفر الاموال التي كان الروم مضطرين الى دفعها لاعدائهم الفرس ، وفعلاً حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح الا انهم

(53) المهم ان انتقامي سد مأرب كان نتيجة لا سبباً لخراب اليمن وتشتت سبا . انظر Hitti ص 65
(54) ظل العالم العربي يجهل حقبة طويلة ان (Sinae) التي كان الوصول اليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول اليها عن طريق البر ابداً كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد ، كما ان سكانهما كانوا من شعب واحد ، وتمثل كلمة « السرق » بالانجليزية (Silk) وبالمربيبة (سرق) بالعربيه (Sirkek) والصينية (ssi) . انظر (Periplus) ص 266 .

(55) تاريخ الطبرى (لدين 12 / 2021 ، انظر ايضاً 2023 حيث جاء : « كان فرج الهند اعظم فرروج فارس شأنها وأشدها شوكة وكان صاحبها يحارب العرب في البر والهند في البحر »
(56) ورد ذكر ابن يامن في بيت لامرء القيس ايضاً :

او المكرعات من نخل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقر المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت) . يرجح الدكتور سليمان التدوى انه كان تاجراً عربياً يعودياً هناك (عربون كي جهاز راني من 26) .

(57) انظر (Hourani) ص 42 . أما اللغويون فنجد اقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخيط : عن الاصمعي عدولى قرية بالبحرين ، وتليل موضع يسمى عدولاة ، وعن ابن الكلبى : عدولى ليسو من ربعة ولا مفرد ولا من يعرف من اليمن انما هم امة على حدة (كذا في المسان « عدل ») .

قد اخطلوا اختلاطاً كبيراً بغير أنهم الفرس ، وكان من الطبيعي أن يشار إلى أعمالهم مما أكبهم دراماً وخيبة . أو لا نرى إلى أزيد من عمان وهو يحتقرون لكونهم « مزونين » وملحين كما أن كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو إلى أصل فارسي (58) . أما الصور الرائعة لمناظر البحر وأهواله وسير السفن فيه التي يذكر بها ديوان العرب ، فلا يصح أن تتخذ دليلاً على مزاولة العرب للملاحة أو اهتمامهم بها ولا سيما إذا كان هناك ما يؤكد استعجمائهم لها ، إنما كانت تلك الصور كليشيات نقلت إلى داخل الجزيرة من المناطق المحلية (59) .

*/

عهد الساسانيين وما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة لممولة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة إلى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم أوضاع دليل على أهمية العلاقات التجارية التي نحن بمددها ، قال دهقان بغداد للمنصور : « ... تحمل البك طرائف الهند والسندي والصين والبصرة وواسط في دجلة ... » (60) .

يصدق هذا القول ما أورده الرحاليون والجغرافيون أمثال سليمان التاجر (237 هـ) وابن خردانبه (232 هـ) والمسعودي (332 هـ) والقدسى (375 هـ) بشأن ازدهار التجارة وال عمران في الإبلة وسيراف والبصرة ، لقد كانت المراكب تتطلع من هذه الموانئ إلى مسقط ومن هناك رأساً إلى كولم ملى (Quilon)

جنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق فاما إلى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي وأما إلى سردينب (جزيره سيلان) وكله Kedah بملابو) على الطريق إلى الصين ، هذا فضلاً عن حركة التجارة المتصلة بالموانئ القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن أشهرها الدليل على مصب نهر السندي وكتبait وبروص (Broach) الحالية) بكرارات واته وصيمور (Chimur) وسوباره (Churparaka = Sopara)

بإقليم يومباي ولقد مررت مدی توقيع العلاقات بين المصدرين الهندوس وزيلقائهم يقول سليمان عن ملوك الككم (Konkon) إنهم « يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة وتزعم اهل مملكة بلهرا (Rashtrakutas = Vallabhai) » إنما يطول مدة ملوكهم وأعمارهم في الملك لمحتبس للعرب وليس في الملوك أشد حباً للعرب منه وكذلك أهل مملكته (61) لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في أسواق العرب ؟

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن انتشار الإسلام إلى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيراً على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وتد كانوا اخطلوا

على ضوء ما سردناه آننا من الأوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع أن نفهم جيداً بعض الحوادث التي وقعت في أوائل العهد الإسلامي، فمثلاً حملة أهل عمان البحري على نارس وحتى سواحل السندي وكجرات بدون سابق اذن من الخليفة الثاني عمر آنما تدل على العزة التقديمة والتحميس الجديد لآيات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متغروقين عليهم من قبل ، كذلك نرى كيف أن عمر الذي كان حذراً خائفاً من « حمل الدود على العود » اضطر إلى السماح بحملة (Adulis) لأشعار الجيشين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسيع النفوذ الإسلامي حتى شملت مصر من جهة والسندي من جهة أخرى فكانت النتيجة أن أصبح طريقاً الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تاقت الحكومات المختلفة إلى تحقيقها فلم توفق إلى إزالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد رأينا من قبل وتبعد هذا التطور الجديد أن ارتفع التناقض والتتسابق بين المنقطتين ورجع نشاط كل منها إلى ما كانت تقتضيه طبيعة العمran والاستهلاك المحلي ، وبما أن خط الخليج الفارسي كان أكثر استقامه وأقرب مسافة وأونق اتصالاً وأن التجار لم يلجأوا إلى البحر الأحمر إلا للضرورة ، لذلك استمر هو الأول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ

(58) المهلب بن أبي صفرة مثلاً .

(59) انظر دائرة المعارف الإسلامية « السفينة » .

(60) البلدان لياقوت (ط أوريا) 1/ 681 .

(61) سلسلة التوارييخ من 27 .

يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم السى القسطنطينية بباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فبيعونها هناك ، وان شاعوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرون بالطاكية وسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون في دجلة إلى الإبلة ومن الإبلة إلى عمان والسندي والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (63) .

ثم يحدثنا ابن خردانبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه :

« هم جنس من الصقالبة فائهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الروسي فيعشرهم صاحب الروم وان صاروا في تتبیس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان ... وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الأبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فرئون الجزية ، فاما مسلكم في البر من الخارج منهم يخرج من الاندلس او من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى أفريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى خارس ثم إلى كرمان ثم إلى السندي ثم إلى الهند ثم إلى الصين (64) .

اما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار إليها بالأجمال أيوب بن القرية (من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما ساله الحاج عن الهند فأجاب بقوله : « بعمرها در وجلها ياقوت وشجرها عطر » (65) - وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرافي حيث قال :

« بحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب ، وفي أنواع دوابه العاج ، وفي منابته الابنوس والبقرن والخيزان وشجر العود والكافور والجوزيا والقرنفل والصندر وسائر الأفواه الطيبة الذكية وطيوره الغافى (يعنى البيباء والطاوايس) وخرشات

وامتزجو الى حد كبير في العصر السابق ، ولذلك تراهم في العصر الإسلامي يشتراكون في أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم في استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من الصير التمييز بين المنصرين ، الا ان نظرة واحدة على اسماء النواخذة الوارد ذكرهم في كتاب عجائب الهند لبزرك بن شهريار (62) تكتفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبه ايضا .

اما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان وقتا لحاجة مصر لا غير وللسهيب نفسه يرجح انه زاد كلما ارتفع شأن مصر على اثر اتحاد الدولة العباسية لاشك ان عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلزم الا انه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة الى الجار ميناء المدينة .

وأخيرا يجب التنبيه على ان ظهور الاسلام وان ادى الى قيام دولة واحدة تشرف على طريقى الخليج الفارسي والبحر الأحمر الا انه في الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة ، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار احدى الدولتين بالاطمئنان الى انشاء صلات مستدية مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة ان انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الاسلام وببلاد المسيحية في ايدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خردانبه بقوله :

« يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والانجليزية والاندلسية والصقلية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجبواري والفلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرون بالفرما (Pelusium) ويعملون بتجارتهم على الظهور الى القلزم ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ، ثم يمضون الى السندي والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ، ثم

(62) Leide, 1883-86

(63) المسالك والممالك 153 - 154 .

(64) المسالك والممالك 153 - 155 .

(65) الاخبار الطوال للدينوري ص 326 .

أرضه الزباد وظباء المسك وما يحصيه حدد لكترة
خирه » (66) .

هذا وقد جمع أحد من الشعراء الموالي اسمه
أبو الشمع أكد في معجم المرز باني 513 وفي
الفهرس 174 « أبو الصلع » السندي كل ما
امتازت الهند به من وفرة الانتاج وأشتهرت به من
جودة المنتجات في أبيات رائعة في معرض المدح
والافتخار ، قال :

لقد انكر أصحابي : وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهند وسمم الهند في المقتول
لعمري أنها ارض اذا قطر بها ينزل
يسير الدر والبياتوت والدر لمن يعطيل

الآثار للتزويوني ص 85 وانظر الحيوان 50/7) .

الألفاظ الهندية العربية

بعد . وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الأول
لبعضه من البضائع إذا افترضنا بثبوت استيراد العرب
لتلك البضاعة منها (الهند) ينبع دليلا قويا : بل
فاطلعا . في كثير من الأحوال ، على أن الاسم هندي
الاصل كالبضاعة ذاتها . فمن الإماثة المتفق عليها من
هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصنبل والساخ
ونلسك والليمون والنارجيل وأسماء عدد من العقاقير
كالاطريل وجميع أصناف التوابل تقريبا كاللفل ،
وسرى أنها لو سرنا على هذه القاعدة لكان في
وسمعنا أن نلقى بعض الضوء على أصول عدد من
الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من انغماس .

ولا يخفى أن لبحثنا هذا جانب آخر على درجة
كبيرة من الأهمية وهو أن معظم تلك الكلمات التي
يقل عنها أنها عربية دخلة في اللغات الأوربية ،
ولاسيما الإسبانية والفرنسية والإنجليزية ، هي في
الاصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق أخرى
شرقي الهند ، وذلك لأن تلك الكلمات إنما شقت
طريقها إلى أوروبا عن طريق التجارة على أيدي
العرب ، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في أي
من حقول الزراعة والصناعة لا شيء إلا لأن الطبيعة
حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية . اذن فكان

أن العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة
في القدم تمثل في الأسماء الهندية المعرفة أكثر منها
في إشارات أو روايات في بطون المجاميع الأدبية
والتاريخية أو المؤلفات الجغرافية ، وقد استحضرت
في ذهني عددا من المفردات المتعلقة بالتجارة وما
اليها اتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها
ما يمكننا من ردها إلى أصلها الهندي المتيق ،
وأقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت إليها بشأن
اصل طائفة من الألفاظ العربية ، والتي ربما اعتبر
بعضها عربيا محضا .

ويهمني أن أنه في هذا المقام بظاهرة ربما
يكفل ابرازها القضاء سلفا على أي استغراب يلحق
الماريء فيما بعد ، وهي أن العرب الأول الذين
نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لجج البحر
الهندي إنما دابوا على ذلك ليجلبوا من الهند وما وراء
الهندي لا البشائع فحسب بل أسماءها المحلية أيضا
كما سمعوها من أنفوا الذين اختلطوا بهم وعاملوهم ،
 وسيبدو ذلك طبيعيا إذا نحن قدرنا أن معظم تلك
البضائع هي التي لم يعرفها العرب في أوطانهم وغير
أوطانهم من قبل ، بل إنما عرفوها لأول مرة في
الهندي ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما